

Ahmad Khalid Tawfik's Novel "On The Birds We Tell" From the Self-Searching Journey to The Journey of Struggle with the Epidemic and Anticipating the Corona Pandemic

Dr.Fatima Kassoul¹

¹ Lecturer -A- Professor, University of Blida 02 , Laboratory of Literary and Critical Studies (Algeria)

Received: 12/2022

Published: 01/2023

Abstract:

With the outbreak of the new Corona virus "Covid-19" around the world, attention shifted into books and novels of the epidemics field, and the works that dealt with the time of viruses. The Egyptian doctor Ahmad Khalid Tawfik's novel "About birds we speak", which was published in the fortieth issue of the Safari series, is one of his creative works. In this novel, the author surprises us with his ability to predict and anticipate the emergence of the Corona epidemic in China, which he photographed in light of the protagonist Alaa Abdel-Azim journey of self-searching. The journey turned into a journey of struggle with death and facing the epidemic.

Keywords: epidemic, pandemic, prediction, self, conflict.

رواية "عن الطيور نحكي" لأحمد خالد توفيق

من رحلة البحث عن الذات إلى رحلة الصراع مع الوباء واستشراف جائحة كورونا
د.فاطمة قسول¹

¹أستاذة محاضرة قسم أ، جامعة البليدة 2، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية (الجزائر)

ملخص:

تحولت الأنظار مع تفشي فيروس كورونا المستجد "كوفيد-19" حول العالم، إلى كتب وروايات عالم الأوبئة التي خاضت في الحديث عن زمن الفيروسات، ورواية "عن الطيور نحكي" للطبيب المصري أحمد خالد توفيق، التي صدرت في العدد الأربعين من سلسلة سفاري، واحدة من الأعمال الإبداعية، التي يفاجئنا فيها كاتبها بقدرته الغريبة على التنبؤ والتوقع، واستشراف ظهور وباء كورونا في الصين، والتي صورها في ضوء رحلة البحث عن الذات لبطلها الطبيب علاء عبد العظيم (مبدأ التعويض النفسي)، والتي تحولت إلى رحلة صراع مع الموت ومواجهة الوباء (مبدأ الاتحاد النفسي).
الكلمات المفتاحية: الوباء، الجائحة، الاستشراف، الذات، الصراع.

مقدمة:

الأدب مرآة العصر، والأديب في تقديم قراءاته لما تحت لوحة الواقع ومجرياته من قاتم وتجسيده للحياة بجمالها وآلامها وتفصيلها، يمتلك من القدرة والمهارة على تقديم رؤية استشرافية تنبؤية تطلعية لخبايا المستقبل بناء على متغيرات الواقع، والتي ولدت من رحم النظرة الثاقبة والواعية التي يمتلكها، فالأدب كان ولا يزال في اتصال دائم مع الإنسان، وما يعيشه وما يتطلع إليه وما يخافه ويقلق راحته، التي لم تخل من المشاكل والنوازل والكوارث، حملته على معاشتها بكل ما تحمل من أوجاع، خاصة تلك المتعلقة بالأوبئة والأمراض المعدية، والتي "لم يكن من المستغرب أبداً، أن يكون الأدب

راصدا شاهدا على العديد من القصص الإنسانية، التي تصاحب هذه الأوبئة والمفعمة بمشاعر متناقضة، بين الألفة والفرق والذعر من الفقد والخشية من دنو الموت " ¹.

وعن دور الأدب في استشراف الأوبئة والتنبؤ بها، فقد حفلت المكتبات العالمية والعربية بالعديد من النصوص الروائية، كسلسلة سفاري للأحمد خالد توفيق التي كتبها عام 1996، فالقارئ لها يجد نفسه أمام مغامرة روائية تجول به بين أوبئة وسحرة وعلماء مخابيل ومرزقة وسارقي أعضاء، وهالة معرفية وتنقيفية مليئة بمعلومات طبية عن الأوبئة والفيروسات القاتلة، والأمراض الغريبة التي تثيره دون أن يشعر بلحظة ملل واحدة، فثلاث روايات من هذه السلسلة اعتمدت الوباء تيمة رئيسية، بدءا من العدد الأول (الوباء)، ومرورا بالعدد الأربعين (عن الطيور نحكي)، وانتهاء بالعدد الثالث والخمسين (الموت الأصفر).

وبحديثنا (عن الطيور نحكي)، فهي من الروايات الاستشرافية، التي تنبأ فيها كاتبها بجائحة كورونا، والتي تميزت بدقة وصفها لهذا المرض وأسبابه، " فقد كادت تتطابق مع الواقع تطابقا تاما، وهو ما يعطي استشرافه بعدا علميا بالإضافة إلى البعد الجمالي" ².

فإلى أي مدى استطاع الاستشراف أن يتجلى في رواية " عن الطيور نحكي"؟، وكيف ساهمت المعرفة الطبية لأحمد خالد توفيق في استشرافه وتنبؤه بجائحة كورونا؟.

1/ الرواية التنبؤية والاستشراف :

يمثل الزمن في صورته الكونية الطبيعية الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا الأخير ينحصر في تطلع الإنسان الدائم إلى ما سيأتي، بالاستناد إلى معطيات تتصل بالموضوع، الذي يتطلب تكوين رؤية مستقبلية عنه، وتُستمدّ هذه المعطيات من ملاحظة شؤون الناس والتأمل في الأمور الغيبية والخيالية، وهو ما يصطلح عليه بالاستشراف، والذي هو الآن نوع من دراسة المستقبل تجمع بين العقل والفن، أي تعتمد على التخصصات المختلفة، وبخاصة الاجتماعية والتاريخية وغيرها، أو ما يسمى الدراسات البيئية، فهو بمفهوم آخر " اجتهاد منظم يرمي إلى صوغ مجموعة من التوقعات المشروطة، التي تشمل المعالم الرئيسية لأوضاع مجتمع ما، أو مجموعة من المجتمعات في فترة زمنية مقبلة" ³.

ومن الناحية الأدبية، يعدّ الاستشراف " رؤيا جامحة في ثنايا المستقبل، رؤية فكرية وأدبية وإبداعية، تفقز فوق شرفات متعددة، قفزة فوق المسلمات السائدة، قفزة تكشفها رؤية الأديب الفنان، وترصدها قبل وقوعها، لتكسب ضوءا فوق جسد الأحداث والتحويلات" ⁴، فالمصادر تشير إلى فضل الأدب في تأصيل علم الاستشراف، ودراسة المستقبل والتنبيه إلى أهمية صناعة المستقبل وتشكيله، "فعلى الصعيد العلمي، ثمة إجماع بين مؤرخي المستقبلات، على أن هاربرت جورج ويلز (H.G.Wells)، أشهر كتاب روايات الخيال العلمي، هو من صكّ مصطلح علم المستقبلات، وقدم اهتمامات عميقة في تأصيل الاهتمام العلمي بالدراسات المستقبلية" ⁵، فهذا الفهم يقودنا إلى إدراك علاقة الاستشراف بالرواية، باعتبارها " الفن الذي ينظر إلى المستقبل، الذي هو زمن الانتظار والأمل والتوقع، من خلال تقديمه لعالم من الواقع والخيال، والذي يسمح

¹: محمد توحيد عالم ، أدب الأوبئة وما بعد الكورونا في المنجز العربي، مجلة الشروق الهندي، ع/1، مجلد3، 2020، ص:41/42

²: هاني إسماعيل رمضان، دور الأدب في استشراف المستقبل (كورونا نموذجا)، أبحاث المؤتمر الدولي العالم في ظل أزمة كورونا إشكاليات وحلول، المنتدى العربي للتركي للتبادل اللغوي ، 31/30 ماي، 2020 ، ص:273

³: عواطف عبد الرحمن، الدراسات المستقبلية (الإشكاليات والأفاق)، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع/1988، 4، ص:14

⁴: عبد الرحمن العكيبي، الاستشراف في النص، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط/1، 2010، ص:17/18

⁵: محمد إبراهيم منصور، توطين الدراسات المستقبلية في الثقافة العربية (الأهمية والصعوبات والشروط)، مكتبة الاسكندرية، د/ط، 2016، ص:18

بتداخل العلوم المختلفة فيه، إنَّها أي الرواية كيان زمني يصور الحياة الاجتماعية والنفسية للشخص الروائية⁶، وهنا تبرز خصوصية الزمن الروائي، في كونه يختلف عن الأزمنة الأخرى، من حيث أنَّه يظلُّ عديم الاكتمال، لما يملك من إمكانية الانفتاح على المستقبل في أي لحظة⁷.

فالروائي لقراءة المستقبل وتجسيده نصياً، يلجأ إلى الخيال والحدس، وعرض المجتمع وأحداثه الواقعية، وشخصه وما يعانون في الحياة من قلق وكآبة، وبوساطة هذه العناصر كلها يخلق عالماً تخيلياً يشير إلى واقع جديد، إلى عالم مستقبلي يخالف الواقع الموجود⁸، من هنا كانت الرواية من أفضل الأجناس الإبداعية استشرافاً للمستقبل، فالعديد منها تنبأت بأوبئة وكوارث وجوائح دمرت العالم، وأسست بذلك اتجاهها أدبياً خاصاً، وأصبح أدب الأوبئة " أحد أنواع الأدب التي لا تقل أهمية عن غيرها، فهي أولاً تحاكي أمراض عاصرها الإنسان وأثرت في حياته. وهذا النوع من الأدب وسيلة جيدة لشرح مشاعر الإنسان في الأوقات ومدى هشاشته، وكيف يمكن أن نحيا كأفراد ومجموعات في تلك الفترات، فالوباء الذي يعيشه العالم حالياً، فرصة لتطوير الأدب وارتياحه إلى آفاق جديدة"⁹، عبر مساهمته مع الدراسات المستقبلية في معرفة ما سيحدث، و جعل الناس على اطلاع بما يحيط بهم، وما ينتظرهم في الغد من أجل اتخاذ الحيطة، وتدبر الأمور قبل حدوثها، والمساهمة في صنع مستقبلهم، فالاستشراف " صورة من صور الاستشعار بالخطر، وإن كان لا ينحصر في قرع أجراس الخطر فحسب، بل يتجاوزها إلى دق نواقيس الأمل والاستبشار بغد أفضل وحياة أسمى"¹⁰.

وعن استشراف المستقبل في الرواية العربية، فقد كانت هناك دائماً ملامح لحياة ما في المستقبل، تتخلل عالم الرواية منذ نشأتها، ويحدث أن يتخيل الروائي حدثاً أو أحداثاً ضمن روايته، ويتحقق بعد ذلك شيء مشابه لما تخيله، فيكون عمله بذلك نوعاً من الاستبصار للمستقبل، ولهذا قيل عنه " إن هذا الأدب له أرضيته السردية المميزة، أساسها رؤية إلهية منقولة إلى الإنسان بوساطة العقل"¹¹، ويعتبر الطبيب والأديب المصري أحمد خالد توفيق، واحداً من أولئك الذين حادوا بالسرد زمانياً وكتبوا روايات تنبؤية.

3/ من هاجس البحث عن الذات إلى الصراع من أجل البقاء واستشراف جائحة كورونا في رواية " عن الطيور نحكي":

يعتبر الطبيب والأديب المصري أحمد خالد توفيق (1962-2018) الملقب بالعرّاب، من الكتاب الذين ناقشوا الكثير من تاريخ الأمراض في أعمالهم، أشهرها سلسلة سافاري "وهي سلسلة روايات أدبية مصرية، شكلت ثورة حتى ضمن مجال كتابته، تدور في أجواء طبية في الأرض الإفريقية في دولة الكاميرون، إذ أضاف الطب والسياسة إلى عوامله القديمة لتكون النتيجة خطة مغربية غريبة موفقة في معظم أعدادها، بدأ إصدارها في عام 1996م وتجاوز عددها 50 كتاباً، استعداد قراء كثيرين الأعمال الأدبية التي تناولت الأوبئة في هذه الأيام، لأن اسم فيروس كورونا أصبح أكثر تداولاً في العالم كله، ونرى أن أعمال الكاتب أكثر ارتباطاً بما يحدث الآن، ولا تقل أهمية أدبية عن الأعمال الأخرى. حينما نلقي النظرة في سلسلته: الوباء، وعن الطيور نحكي، والموت الأصفر، سنكون أمام أعماله أشد الارتباط بما يحدث الآن"¹².

⁶: محمد عبدالله القواسمة، الرواية والاستشراف، <https://www.addustour.com/articles/1264938>، 2022/05/06، الساعة 15:10.

⁷: ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990، ص:109

⁸: ينظر: عبدالله القواسمة، الرواية والاستشراف، 2022/05/06، الساعة 15:15

⁹: محمد توحيد عالم، أدب الأوبئة وما بعد الكورونا في المنجز العربي، ص:41/42

¹⁰: هاني إسماعيل رمضان، دور الأدب في استشراف المستقبل (كورونا نموذجاً)، ص:270

¹¹: هبة عماري، الأدب الوبائي تحت مظلة كورونا؛ تمثلات جديدة لكتابة فيروسية فائقة، مجلة الشروق الهندي،

ع/1، مجلد3، 2020، ص:60

¹²: محمد توحيد عالم، أدب الأوبئة وما بعد الكورونا في المنجز العربي، ص:52

فرواياته تستحق الدراسة، لريادتها في استشراف الأوبئة والتنبؤ بها، ويعود ذلك لسببين رئيسيين¹³:
*الأول: أنه طبيب قبل أن يكون روائي، فقد تخرّج من كلية الطب، وأصبح أستاذاً في طب المناطق الحارة بجامعة طنطا، وكان إلى جانب عمله مبدعاً، قدّم سلاسل متتالية من الأعمال في كل مجال أبدع فيه، كان عضو هيئة التدريس، واستشاري قسم أمراض الباطنة في كلية الطب جامعة طنطا، ومن ثم ما يقدمه من معلومات طبية، يستند إلى أسس علمية مبنية على خبرته المهنية، والأكاديمية.

*الثاني: دقة تنبؤاته حول كورونا ودقة وصفه لمصدرها وأسبابها، فقد كانت تتطابق مع الواقع تطابقاً تاماً، وهو ما يعطي استشرافه بعداً علمياً، بالإضافة إلى البعد الجمالي.

ولما كان موضوع كتابة الوباء تجربة استثنائية، خاض أحمد خالد توفيق فيها، واسترسل في التعبير عن خصوصيتها، ما يجعل السرد يتوسل طرائق مختلفة، ويلامس أشياء أخرى، لتأتي رواية " عن الطيور نحكي" كما جاء على لسان كاتبها عبارة عن " خليط عجيب من الطب والميتافيزيقيا، والرعب والعواطف والسياسة"¹⁴، والتي اختار لأحداثها فضاء إفريقيا، أين انتشر وباء ألفنونزا الطيور القاتل في الكامبرون، والذي خرج عن إطار السيطرة، وأهلك قرى بأكملها، ولم تسلم حتى الطيور من فتك هذا المرض، الذي يشير " إلى ارتباطه بالدجاج، لينتقل لنا ويقدم جرعة مكثفة عن فيروسات ألفنونزا الطيور الخنازير، ويحكي أن فيروسات الطيور تصيب الخنازير، وتكتسب قدرات أخطر حيث تختلط صفات فيروس الدجاجة والخنزير، ليصنعاً فيروساً جديداً ينتقل من الخنزير إلى الإنسان، كان يشير إلى الفيروسات القاتلة، في بلد غريب استطاع أن يجمع ما بين الخنزير والدجاجة في مساحة واحدة وبشكل لافت"¹⁵، وقد سعى للتصدي له مجموعة من الأطباء من وحدة سافاري، وعلى رأسهم الطبيب المصري الشاب (علاء عبد العظيم)، " وحدة سافاري في الكامبرون.. مكانها خارج أنجوانديري شمال البلاد، بالضبط عند حدود الكامبرون مع نيجيريا... تعيش بالكامل على إعانات الخارجية لأنها منظمة لا تهدف إلى الربح... انشئت عام 1957 في كينيا بعدما كانت مجرد فكرة في ذهن البارون النمساوي فون رامشتيت، ثم سرعان ما نمت المنظمة وصارت لها وحدات في أكثر من بلد إفريقي"¹⁶، فالوحدة بأبطالها الأطباء وعلى رأسهم علاء عبد العظيم البطل الحقيقي لهذه القصص، " وسافاري مصطلح غربي معناه صيد الوحوش في أدغال إفريقيا.... وحدة سافاري التي نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش، ولكنها تصطاد المرض في القارة السوداء، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهي وأهال متشككين وبيئة لا ترحم"¹⁷.

* أ/ رحلة البحث عن الذات ومبدأ التعويض النفسي:

سلط أحمد خالد توفيق الضوء على صورة الوباء في الدول الإفريقية، انطلاقاً من محنة الذات وأزمته التي عاشها علاء عبد العظيم في ظل واقع يهيمش الشباب، ويقمع تطلعاتهم وطموحهم، محيلاً بذلك على معنى مزدوج لمعاناة الإنسان (الفرد) من جهة، والمجتمع بأسره من جهة ثانية، ولذلك يمثل البحث عن التوازن النفسي، أحد مكونات هذه الذات المأزومة، التي تتطلق من رحلة نحو الكامبرون عنوانها الكيان الباحث عن وجوده الاجتماعي، سفر يشي بالواقع النفسي للطبيب البطل، والأزمة المستحكمة في واقع الفساد والإفساد، الذي لم يعطه فرصته وحمله على ترك وطنه، " لكن بطلمم الفقير المعترف بالعجز والتقصير، شاب مصري عادي جداً، فقد وجد كثيراً من عوامل الطرد

فشخصية علاء عبد العظيم في الرواية، قد خرجت من وطنها لتخوض تجربة إثبات الذات، عبر التواصل مع الآخر، سعياً إلى تصوير تجربة مشتركة في المنفى، قوامها الذات المغتربة التي تبحث عن وجودها، لتترتب بسفرها إلى الكامبرون عمليات أدائية " فرضت على ذات البطل، اللجوء إلى مبدأ التعويض الذي أقره يونغ (Jung) بوصفه مبدأ من

¹³: ينظر: هاني إسماعيل رمضان، دور الأدب في استشراف المستقبل (كورونا نموذجاً)، أبحاث المؤتمر الدولي العالم في

ظل أزمة كورونا إشكاليات وحلول، ص: 276/277

14: أحمد خالد توفيق، سافاري (عن الطيور نحكي)، المؤسسة العربية المتحدة، د/ط، د/ت، ص: 06

15: محمد توحيد عالم، أدب الأوبئة وما بعد الكورونا في المنجز العربي، مجلة الشروق الهندي، ص: 53

16: الرواية، ص: 11

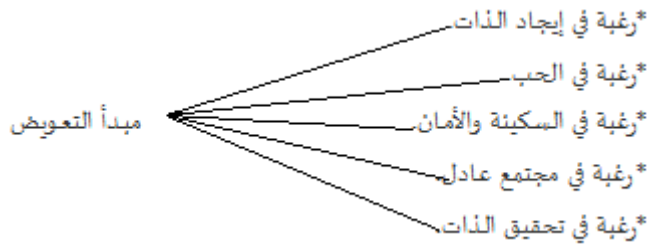
17: الرواية، ص: 4

18: الرواية، ص: 05

مبادئ الذات العليا، وهو ضرورة من ضرورات الشخصية السليمة، وضرب من أدائها العالي، فلقد أدركت الذات البطلة أنها بحاجة إلى إعادة تشكيل كي يتسنى لها تحقيق الوعي الكامل¹⁹، ففكرة سفر علاء التعويضية التي استعدت منه تحويل مسار أهدافه، تتيح التوازن بين قوى النفس، لتأتي بقدر من الاستقرار يكمن الوصول إليه بشكل أسهل، ونزع الاعتراف بوصفه عنصراً فاعلاً في المجتمع، "فانطلق يبحث عن فرصة في القارة السوداء، انطلق يبحث عن ذاته، هناك وجد التقدير...، وجد المغامرة...، وجد الحب، ووجد الفيروسات القاتلة"²⁰.

لقد فقدت الذات أحلامها في وطنها، وتعبت من واقعها الاجتماعي والسياسي، فوجدت في السفر والمنفى الاحتواء الذي تضطلع إليه، كما وجدت الاهتمام والتقدير والحب ملاذاً من التيه الذي سكن روحها، فبرنات المرأة الملاك التي أحبها، تزيد من تحقيق التوازن النفسي لدى علاء، تبعث الشعور الدائم بالنشاط والحيوية، وتقديم الإضافة كطبيب مغترب، فرغم مرضها وإصابتها بالفيروس، إلا أن الحب لذات المحبوب شخصاً وروحاً، كان الدافع للاستمرار " برنات بخير، صحيح أنها ازدادت نحولاً، لكن من قال إن النحول ليس من الصفات التي تحبيني في المرأة؟.. برنات الرقيقة.. برنات الباسلة.. برنات الملائكية..."²¹.

وعليه يمكننا تحديد هذه الرغبة التي تتوء بالذات نحو السفر فيما يلي:



لتعكس هذه الوجوه المختلفة للرغبة الإنسانية، ذاتاً ممزقة عجزت عن التكيف مع واقعها، مما دفعها إلى السفر ورحلة البحث عن الوجود²².

هكذا جعل أحمد خالد توفيق من المنفى (الكاميرون)، فضاء لتواصل الذات المغتربة التي عجزت عن تحقيق أحلامها في وطنها، فكان السفر حلاً لمشكلاتها العميقة، وخلصاً من كل المحن الداخلية وفراغ الروح وسطوة التهميش، وإدراك جوهر وحقيقة الذات، التي "تخوض تجربة فهم أعماقها الخاصة، وتحولات مجتمعا من جهة، كما تتجاوز ذلك إلى التواصل مع الآخر، سعياً إلى تصوير تجربة مشتركة في المنفى، قوامها الذات المغتربة التي تبحث عن وجودها"²³، والتي لم ترض أن يهزمها واقعها السياسي والاجتماعي.

***ب/رحلة الصراع من أجل البقاء ومبدأ الاتحاد النفسي:**

عبر فعل الذاكرة الاسترجاعي الذي تراكمت فيه الخبرات الإنسانية، وعاطفتها بكل ما فيها من توترات وحنين، يسترجع علاء عبد العظيم رحلته إلى الكاميرون وانضمامه إلى وحدة سفاري التي وجد فيها نفسه في مواجهة الوباء، لتتغير الوجهة والهدف من البحث عن الذات، إلى محاربة الموت الذي كان يهدد حياته جراء الوباء الذي أصاب الكاميرون، وأهلك قرى بأكملها، "غير أن تجربة الذات في مواجهة الواقع، ومحاولة انعتاقها من سطوته وانكساراته، بانضمامه إلى وحدة

19: حسين عبيد الشمري، تجليات الذات في قصة _ تيمور الحزين _ للقاص أحمد خلف، مجلة كلية الآداب، ع/73، ص:494

20: الرواية، ص:05

21: الرواية، ص:07

22: ينظر: هشام مشبال، الذات في السرد الروائي، <http://www.alkalimah.net/Articles/Read/6049>.

2022/05/07، الساعة 14:20

23: هشام مشبال، الذات في السرد الروائي، الساعة 14:25.

سفارى جعلته يواجه واقعا من العسير فيه أن تجمع فيه بين شيئين أن تظل حيا وأن تظل طبيبا" ²⁴، وهنا تلجأ الذات إلى مبدأ الاتحاد الذي "يعتمد على اتحاد قوتين بينهما تناقض وتصارع، حيث تسعى الشخصية من خلال تحقيق هذه الوحدة، إلى التوصل إلى حل يناسب الموقف الذي يتسبب لها بالاضطراب أو سوء التوافق" ²⁵.

فعمق زمن المحكي المسترجع، جعلت الكاتب يتوغل في رحاب الزمن البعيد، لنبش واستعادة ما يختزن في ثنايا الذاكرة، من أحداث ذات قيمة في تشكيل الحكاية، التي عايشها علاء عبد العظيم وهو سارد مشارك في الحكي، يروي تجربته الحياتية الإنسانية، كطبيب واجه الموت عدة مرات، " أخيرا تنتهي أيام جنوب إفريقيا، حيث النفي عند طرف العالم الجنوبي، كالعادة رأيت الكثير مما لم يره أحد ممن عاشوا هناك أعواما.. لم أستمتع بوقتي في مشاهدة المزارات السياحية، لكنني كدت أموت عدة مرات .. عصابات سطو مسلح.. حوادث سيارات.. كلاهاري.. بوشمن.. مالاريا" ²⁶.

فالذاكرة أمست مادة الحكي، ومنها استمد الكاتب مادته التي اعتمدت على "الزمن الماضي اعتمادا أساسيا، ولذلك توالت السياقات الحكائية فيه، صادرة عن الذاكرة التي لعبت دورا أوليا في الإبانة عما يُعتمَل في ذوات الشخصيات الروائية، لأن الحكي الذي يخلع أبواب الذاكرة، ويتركها تحكي طويلا وبلا خوف عن الماضي، يتمدد على مساحات واسعة من الحاضر، لينسج كوامن الذات" ²⁷، فدلالة هذا الاسترجاع يكمن في كشف المفارقة بين محتوى حكي الراهن، المتمثل في رحلة إثبات الذات، ومحتوى المحكي المسترجع المتمثل في رحلة تحولت إلى عذاب في مواجهة الوباء (الموت)، والتي جعلته يتعايش بقوة الظروف والالتزام المهني مع الوضع الراهن الذي جعله يضطرب، فأمست المواجهة مع الموت الحل الوحيد، "منذ دقائق كنت أف في منطقة الأمان الخاصة بتلك الفيروسات العابرة (فيروسات الاربعة والعشرين ساعة)، التي تأتي وتذهب دون أن نعرف ماذا كانت.. تلك الوبكات التي تشفى قبل أن نعرف أننا متوكون.. الآن أنا صرت في ساحة المرض المخيفة" ²⁸.

ليُخذ الحكي من الذاكرة " أداة لاستعادة الثقة بالنفس، والشعور بالتواصل مع الحياة في اللحظة الراهنة، التي تُحكي فيها مظاهر المأساة المحيطة بتلك الشخصيات الروائية، لأنه لم يكن إلا مظهرا من

مظاهر تحدي الحاضر والتغلب عليه" ²⁹، ومن مبدأ الاتحاد أسلوبا تعيشيا مع فيروس خطير يفتك بالناس، وهو الذي سافر بحثا عن إثبات الذات والاستقرار، غير أنه كطبيب واجبه الإنساني والمهني يملئ عليه وجوب التصدي لتداعيات هذا الوباء ومساءلة طبيعته، ومواجهة الأزمة التي خرجت عن السيطرة، و أمسى الخوف من الموت والصراع من أجل البقاء عنوانا لرحلة الذات، "حين لحقت بهم في الوحدة عرفت أنهم يواجهون مشكلة عويصة، إن فيروسا من طراز H1N1 يجتاح البلاد أو بدأ يفعل ذلك، وقد شكل رئيس وحدة سفارى كيانا يدعى الفريق (ه) مهمته السيطرة على هذا الوباء" ³⁰.

تطلب مواجهة نيران العدوى من علاء وزملاءه الأطباء، أخذ كل الاحتياطات الواجب اتباعها عند العناية بالمرضى في المنشآت الصحية للحد من انتقال المرض، على أن تكون هذه الاحتياطات جزءا من الممارسات المتبعة مع كل المرضى في كل المستويات، ورغم ذلك لم يسلم الأمر، فالطبيب التونسي بسام بوغطاس كان أول المصابين بالوباء " يجب أن أقول أن تدهور حالتي كان يتقدم بشكل غير مسبوق، عظامي كلها كانت تتوجع، حرارتي ترتفع... التنفس صار أصعب.. لا سعال

24: الرواية، ص:05

25: نسرين محمد أحمد الطراد، عماد عبد هلال الشرفين، نظرية الشخصية عند كارل يونج Jung Carl، دراسة نفسية

نقدية، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية، ع/ 2، 2021، ص:410

26: الرواية، ص:06

27: أحمد، مرشد،، البنية والدلالة في روايات ابراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د/ط، 2016، ص:243

28: الرواية، ص:24

29: أحمد، مرشد،، البنية والدلالة في روايات ابراهيم نصر الله، ص:241

30: الرواية، ص:78

لكن الهواء كان ثمينا بالفعل"³¹، مما استلزم حالة من التأهب والحرص من طرف الوحدة، التي استرسلت في تحليل مرض المصاب من أجل معرفة سبب الإصابة" أنت تتعاطى أقرص الوقاية من الملاريا ... أعتقد أنني يجب أن أطلب رأيا.. لحسن الحظ كان الطبيب آرثر شيلبي أستاذ طب المناطق الحارة قد عاد من أمريكا..."³²، فالخطر كبير، والكاميرون بما تعانيه من أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية وصحية، لا تقف على أرضية صلبة أمام الوباء، ما يجعل علاء عبد العظيم وزملائه الأطباء في مواجهة صعبة مع الموت" لا يوجد ما يضمن لي ألا أسقط ميتا غدا"³³.

*ج/استشراف وباء كورونا ضمن مدار الكائن والممكن:

برع العديد من الأدباء من عوالم الطب في كتابة السرد والروايات تحديداً، وأحمد خالد توفيق باعتباره طبيبا، يعيد تشكيل رؤيته الروائية لهذا العالم المخيف فنياً، بالاستناد على وقائع علمية وقراءات تحليلية للأوبئة، ذهبت به إلى أبعد مما هو متوقع، حد الاستشراف بالمستقبل، انطلاقاً من المؤشرات التي تحدثت على أرض الحاضر، ذلك أن "الوحدة التحليلية الخاصة بالأدب الوبائي، تقوم على عنصر الترقب، عكس الأدب العام القائم على وحدة تحليلية هي النصوص الروائية على تنوعاتها، والتي تقوم بدورها على عنصر التخيل"³⁴، فالترجمات المرضية والأوبئة التي اجتاحت العالم والتي اختار لها الروائي الأراضى الإفريقية فضاء لطرح تكهناته المستقبلية، فرضتها حالة الترقب والقراءات العلمية التحليلية، التي كانت نتيجة حتمية لتداعيات الأوبئة الكثيرة التي عايشها الإنسان الإفريقي، والتي بدأت بظهور وباء ألفتونزا عام 1918، والذي أطلقوا عليه اسم الوباء الإسباني،"الكابوس الذي يطارد علماء الفيروسات في العالم كله، هو أن يعود وباء ألفتونزا عام 1918 الذي أطلقوا عليه اسم الوباء الإسباني إلى الظهور، لقد فتك هذا الوباء بثلاثين مليوناً من البشر، أي أكثر من ضحايا الحرب العالمية الأولى، وعلمياً لم ينج إنسان على وجه الأرض من الإصابة به سواء كانت شديدة أو خفيفة، قاتلة أو غير قاتلة"³⁵، فعنصر الترقب سمة مميزة لأدب الوباء، بحيث يخرج من بؤرة الانتماء للخيال العلمي، كونه يستحضر المستقبل الفيروسي الذي يصفه ابتكارات علمية كبرى، نتائجها غير معروفة مسبقاً وقت الكتابة.

فالكاتب وظف هذه الحقائق العلمية، التي تنبأ في ضوءها عن انتشار فيروس وبائي من نوعية فيروسات الالتهاب الرئوي، موطنه القادم جنوب شرق آسيا، وبالضبط في الصين"لم يخطر ببال أحدنا موضع ألفتونزا الدجاج هذه، أنت تعرف أن هذه الأمراض لا تعتبر جزءاً من ترسانة الأمراض التي تفتك بإفريقيا، لدينا كل شيء هنا، فلا تتصور أن نضيف ألفتونزا الدجاج، أعتقد أن الطقس الحار يلعب دوراً في انتشار هذه الأمراض، لا بد من طيور مهاجرة وخنازير وهذه الأشياء لا تجدها هنا لكن تجدها بوفرة في جنوب الصين"³⁶، لنكون بذلك أمام استقراء علمي، لنبوءة الروائي التي تحققت على أرض الواقع، ومعايشة العالم مؤخراً لوباء أطلق عليه كورونا (كوفيد 19)، المرتبط بالمتلازمة التنفسية الحادة، وظهر في جنوب شرق آسيا وفي الصين تحديداً" يخفي كل فلاح صيني في حظيرته مختبراً خطيراً للتجارب البيولوجية، وفي هذه الحظيرة تنشأ أنواع فيروسات لم نسمع عنها من قبل"³⁷.

وعليه فالاستشراف الذي يوظفه الكاتب في هذه الرواية، وتنبئه بالجائحة ليس غرضه ذكر أحداث لم يصل إليها حاضر السرد، بقدر ما هو استشراف رؤيوي، يسير أغوار المستقبل ويستطلع المصائر والأوضاع كما ستكون عليه، "إذا كان الاستشراف على المستوى الوظيفي، بمثابة تمهيد أو توطئة لأحداث لاحقة يجري الإعداد لسردها من قبل الراوي، فنكون غايتها في هذه الحالة هي حمل القارئ على توقع حادث ما، أو التكهّن بمستقبل إحدى الشخصيات، وما ستؤول إليه مصائر

31: الرواية، ص: 42

32: الرواية، ص: 22

33: الرواية، ص: 68

34: هيبية عماري، الأدب الوبائي تحت مظلة كورونا: تمثيلات جديدة لكتابة فيروسية فائقة، ص: 63

35: الرواية، ص: 53

36: الرواية، ص: 40/39

37: الرواية، ص: 60

الشخصيات، فإن الاستشراق لدى الكاتب، بالرغم من أدائه لبعض هذه الوظائف، إلا أنه رؤيا قبل كل شيء، إنه استشراق يبحث فيما وراء قشرة الراهن ليستطلع الغيب"³⁸.

وعلى مستوى آخر يكشف استشراق الروائي لوباء كورونا، عن قدرته على استقراء الواقع الكائن واستطلاع الواقع الممكن، كما تكشف عن وعي واضح برسالته، التي ليس من شأنها وصف الواقع فقط وإنما استشراق المستقبل، الذي سيكون مداره الاشتغال ضمن ثنائية الكائن والممكن، "لكن د.شروندج وبارتلييه يعرفان جيدا أن الوباء الحقيقي المرعب قادم لا شك فيه.. سيبدأ من مكان ما في الصين أو هونج كونج.. ساعتها لن يكون لنا أمل إلا في رحمة الله ثم البيولوجية الجزئية وسرعة تركيب اللقاح"³⁹.

كما قلنا سابقا فإن استشراق وباء كورونا، كان بالاستناد على حقائق علمية، نابعة من كون الكاتب ينتمي إلى مجال الطب، وعلى علم بمفرداته و أدواته وحالاته" فاللغة الطبية باعتبارها لغة متخصصة.. تتحدد وظيفتها في ضمان تبادل المعلومات الطبية المتخصصة ضمن نطاق ضيق لا يتعدى أهل الاختصاص..، وهذه الرؤية الدقيقة تجعل من اللغة الطبية لغة متفردة في أصلها، متخصصة في كينونتها، ذات مضمون طبي بحث "⁴⁰، ولكنها بدخولها عالم الرواية والتفاعل معها فنيا، قدّمت رؤية استشراقية من خلال ثنائية الحياة والموت، المرض والشفاء وثنائية الراحة والألم، اهتدى الكاتب أحمد توفيق إليها بحسه الإنساني وبيقظته الفكرية، وتكوينه العلمي الدقيق وبمعاينته اليومية والمباشرة للفيروسات.

خاتمة:

واستنادا على ما قمنا بدراسته حول هذا الموضوع توصلنا إلى النتائج التالية:
* صور أحمد خالد توفيق المعاناة الإنسانية لوباء كورونا، الذي اجتاح العالم مؤخرا قبل حدوثها، في ضوء رحلة الطبيب المصري علاء عبد العظيم إلى الكامبيرون، من أجل البحث عن ذاته بعد أن عجز أن يوفر له وطنه حياة كريمة، ليقرر السفر وينظم إلى وحدة سفارى الطبية، أين يجد نفسه في مواجهة الموت، وصراع من أجل البقاء جراء وباء ألفونزا الطيور الذي انتشر.

* توقعات الكاتب بانتشار أوبئة أخرى مستقبلا وصلت حد استشراق وباء كورونا، جاءت جراء خبرته المتراكمة في المجال العلمي الطبي، ما حوله إمكانية ربطها بالمستقبل والتصورات العلمية للحياة، التي نراها تجارب ثرية ومستمرة دون توقف وتتجانس مع سيروية الزمن.

* وضع الكاتب القارئ أمام فكرة استشراقية تخييلية، تضيف للرواية بعدا زمنيا ثالثا هو المستقبل (الاستشراق الوبائي الواقعي مستقبل يرتبط بالواقع).

* إن رحلة الشخصية البطلة للبحث عن الذات والصراع من أجل البقاء، عالجهما أحمد توفيق في إطار أساليب النفس لحل الصراعات (مبدأ التعويض ومبدأ الاتحاد)، التي أقرها كارل جوستاف يونغ في إطار علم النفس التحليلي.

المصادر والمراجع:

المصادر:

* أحمد خالد توفيق، سفارى (عن الطيور نحكي)، المؤسسة العربية المتحدة، د/ط، د/ت.

المراجع:

* أحمد، مرشد، البنية والدلالة في روايات ابراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د/ط، 2016

* حسن بحر اوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، ط/1، 1990

* عبد الرحمن العكيمي، الاستشراق في النص، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط/2010، 1

38: نبيل بوالسيو، تجليات الاستشراق في رواية "ضمير الغائب" لواسيني الأعرج، مجلة المقال، ع/2015، 1 ص: 11

39: الرواية ص: 111

40: مرحوم رفيقة، الترجمة الطبية، مفهوم واقع وتصور، رسالة ماجستير، إشراف: بلقاسمي حفيظة، جامعة وهران، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم الترجمة، 2015/2016، ص: 22

*محمد إبراهيم منصور، توطين الدراسات المستقبلية في الثقافة العربية (الأهمية والصعوبات والشروط)، مكتبة الإسكندرية، د/ط، 2016

المجلات والدوريات:

*حسين عبيد الشمري، تجليات الذات في قصة _ تيمور الحزين _ للقاص احمد خلف، مجلة كلية الآداب، ع/73
*عواطف عبد الرحمن، الدراسات المستقبلية (الإشكاليات والأفاق)، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع/1988، 4

*محمد توحيد عالم ، أدب الأوبئة وما بعد الكورونا في المنجز العربي، مجلة الشروق الهندي، ع/1، مجلد3، 2020
*نبيل بوالسيو، تجليات الاستشراق في رواية "ضمير الغائب" لواسيني الأعرج، مجلة المقال، ع/1، 2015
*نسرين محمد أحمد الطراد، عماد عبد هلال الشرفين، نظرية الشخصية عند كارل يونج Jung Carl، دراسة نفسية نقدية، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية، ع/ 2021، 2

*هاني إسماعيل رمضان، دور الأدب في استشراق المستقبل (كرونا نموذجاً)، أبحاث المؤتمر الدولي العالم في ظل أزمة كورونا إشكاليات وحلول، المنتدى العربي التركي للتبادل اللغوي ، 31/30 ماي، 2020
*هيبة عماري، الأدب الوبائي تحت مظلة كورونا؛ تمثلات جديدة لكتابة فيروسية فائقة، مجلة الشروق الهندي، ع/1، مجلد3، 2020،

المواقع:

*محمد عبدالله القواسمة، الرواية والاستشراق، <https://www.addustour.com/articles/1264938>

*هشام مشبال، الذات في السرد الروائي، <http://www.alkalimah.net/Articles/Read/6049>

الرسائل الجامعية:

*رفيقة مرحوم، الترجمة الطبية، مفهوم واقع وتصور، رسالة ماجستير، إشراف: بلقاسمي حفيفة، جامعة وهران، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم الترجمة، 2015/2016